**مــدخــل:**

أوَّلُ الشِّعرِ أسْبَابٌ تلاحَقَت بأوتاد، ثُمَّ اتَّصَلَتْ بَيْنَهَا وَشَائِج الشُّعور الإنساني، هكذا يكون ميلادُ القصيدة منذُ كانَ للإنسانِ فنٌ يدعى الشِّعر، والإنسانُ بطبيعته عُرْضَةٌ لعوارض السُّنَنِ الكونية أين يجتمع عليه السُّرور والحزن، وتلتقي عليه بواعث الآلام المؤرِّقة وراوفد الآمال المنشودة، فيحتاج في كلُّ ما يَضْطَّرم بين حَنايا ضُلُوعِه شيئا يجعله يُبُوح عن نفسه، فلذلك كانَ المُتَنَفَّسُ إحداثَ هذا الضَّربِ من البيانِ وتسميَتهِ الشِّعر، ولقد عُرِف الشِّعرُ عند الأمُمِ قَدِيمًا، وكان له دائما الأثر البالغ في تنمية الحياة الثقافيَّة، وما ذِكْرُ أُمَّةِ يُونَان وأُمَّةِ الهِند بالَّذي يخفى ولا بالَّذي يغيب.

ولقدْ كانَ للعَرَبِ قَديما مَحْفَـلٌ كبيرٌ بهذا الفنِّ، فقد كانوا مُتَسَابِقِينَ بين رِيَاضِهِ، يَرْكبون في قريضهِ المَرْكَبَ العالي، ويرتقون في إجادته مَدْرَجَةَ الكمال، حَتَّى جعلوه ديوانهم وكتابَ أيَّامهم، وإليه تُنْمى جُلُّ أخبارهم وشمائلهم، وذلك لعوامل معروفة أشهرها بيئة شبه الجزيرة العربيَّة إذْ كان لهم حظٌّ وافر من التَّأمل في ملكوت الله بين البوادي والحواضر، وقد أشار التنزيل الحكيم إلى ميزتهم في ذلك كقوله تعالى:﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[[1]](#footnote-2)، وهذا الملك الضَّليل يغوصُ بين أعماق التَّأمل ودقَّة الملاحظة:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معًا كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

وهذا الشَّماخ بن ضرارٍ الَّذي ما كان أحَدٌ يجاريه أو يدانيه في وصف الحُمُرِ، حتَّى قال فيه الوليد بن عبد الملك: « إنَّي لأحسَبُ أنَّ أحَد أبَويه كان حمارًا !»، هذا وقد ظلَّ دَأبُ العرب جارِيا على أنْ تقول الشِّعْرَ وَتَرْوِيَهُ وتَنْقُدَه وتكتب الأسفار في معالجة قضاياه حقبة بعد حقبة، ودولة في تتابع أخرى، فبلغوا في ذلك الغاية ورفعوا لشرفه الرَّاية.

ولقد حملَ القرنُ الثَّامن الهجريُّ من تاريخ الإسلام جملةً من الأحداث العظيمة، وشَهِدَ في طِيَّاته نهضةً جليلة قام بها علماء الإسلام آنذاك، فقد كان العهدُ قريبا بأفول دولتهم على يد التتار، وانتقلت حاضرةُ الإسلام من بغداد الرَّشيد إلى الشَّام وبلاد الكنانة في حقبة المماليك، وقام للعلم صَرحٌ بعدما عَفَّتْ آثارهُ وانْدَرَس، وشُيِّدَ للثقافة عِزٌّها التَّليدُ بعدما هَانَ وانْطَمَس، وهبَّتْ رِيَاحُ النَّهْضَةِ في علوم العربيَّة والتَّاريخ والفقه والفلسفة وغيرها، وقد ذكر لنا المحدِّث المُؤَرِّخُ مُحَمَّد بن عبد الرَّحمن السَّخاويُّ (900ه) الكثير من أخبار هؤلاء المجدِّدين في سِفره الجليل «الضَّوء اللَّامع»[[2]](#footnote-3)، وكذلك الإمام مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد بن عبد الله الشَّوكَانيّ اليَمَني (1250ه) في سفره الماتع «البَدْرُ الطَّالع بمحاسن من بعد الْقرن السَّابِع» ، إذْ أثار فيه قضيَّة إحياء المجدِّدين لمعالم العربيَّة والدِّين، وأزرى فيه على الغامطين الشانئين، وعلى سبيل المثال فقد اشتهرت طائفة من هؤلاء العلماء والأدباء، فمنهم الحافظ الذَّهَبي (748ه)، والحافظ المِزِيُّ(742ه) ، وتقي الدِّين أبو العبَّاس أحمد بن عبد الحليم بن تيميَّة (728ه)، وتلميذه ابن القيِّم الجوزيَّة (751ه)، والإمام جمال الدِّين بن مالك (672ه) وغيرهم، ثُمَّ تلت هؤلاء طبقة أخرى لا تقلُّ شأنًا عنهم ففي علم اللُّغة مثلا صاحب القاموس الإمام الفيروزآبادي (817ه)، وصاحب اللِّسان أبو الفضل ابن منظور (711ه)، والنَّحوي ابن هشام الأنصاري (761ه)، وفي علوم الشَّرع واللغة والتَّاريخ الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني (852ه)، وبدر الدِّين العـينيِّ (855ه)، وخاتمة الحُفَّاظ جلال الدِّين السُّيوطيُّ (911ه)، وغيرهم الكثير الكثير مِمَّن حمل سراج العلم، وكلُّ هذا يُدُلُّ على أنَّ ظاهرة وصف هذا العصر بالانحطاط ما هي إلا خُرافةٌ روَّج لها كثير مِمَّن قد يُتَّهم في نَقْلِهِ وعِلْمِه.

وفي خِضَمِّ هذا المُعْتَرَكِ العلميِّ الزَّمنيِّ، وفي ظِلِّ تَسَارع هذه الأحداث كانت التُّخُوم المغربيَّة كنظيرتها في المشرق تصنع الثورة العلميَّة، وتُمِدُّها بأسباب النَّهضة في تخريج العلماء والأدباء والمفكرين، ولا زال الأمر على هذا حتَّى أظَلَّ زمانُ بيت من بيوتات العلم المشهورة بتونس، نَزَحَ من إشبيليَّة إلى إفريقيَّة لما تقلَّبت أحوال المُلك آنذاك، وقد عُرِف هذا البيت بالفضل والرِّياسة فقد كان جُلُّ رجال هذا البيت من أهل العلم والسياسة، وتحت كَنفِ هذه الرِّعاية نشأ شابٌ يافع، ظهرت فيه بوادر النجابة والاجتهاد، وسمو الهمَّة والمَطْلَب، فحفظ القرآن واشتغل بطلب العلم على أجَلِّ شيوخ زمانه وكانت له القَدَمُ الثقيلة فيه، حتَّى برع وتَفنَّنَ في علوم العربيَّة وفات الأقران في العلوم العقليَّة والنَّقليَّة، ثم شاءت سوالف الأقضيَّة أن يذهب الطَّاعون بجُلِّ أسرته ومشايخه وهو شاب في العشرين، هناك تطلَّعت همَّته إلى شرَفِ الرِّياسة وعلياء المَجد، فولج الحياة السياسية الخطيرة المزالق وتقلب بين أنياب الملك حتَّى كاد يودي بحياته أكثر من مرَّة، غير أنَّها هذه الحياة ضرَّسَتْهُ وحَنَّكَتْهُ وصَنَعَتْ منه الشَّخصيَّة المستقلَّة في التفكير والتجديد، إذْ استطاعت أنْ تُهيَّأ له ظروفَ معالجة الكتب ومعالجة طبائع النَّاس ومجالسة الشُّيُّوخ، مع ما انْضَافَ إليها من نَباهَةِ هذا الرَّجل وقدرته على البيان وعلى قياس المسائل وإلحاق فرعها بأصلها، وشاردها بواردها، إذن، كلِّ هذه العوامل صنعت منه الشَّخصيَّة التي تَلْهَجُ بها الألسنة ذكرا محمودًا إلى ساعة النَّاس هذه، وعلى أعقاب أهل العلم في جميع أرجاء العالم دون أن تُفرِّق بينهم نِحْلَة أو دِينٍ أو لَوْنٍ أو لُغَة.

اشتهر ابن خلدون بين النَّاس على أنَّه مُؤَسِّسُ علم الاجتماع، وعلى أنَّه فيلسوف له قَدمه في علم الفلسفة والحكمة، وعلى أنَّه المنظرُ الأول في علم أحوال العمران وطبائع النَّاس، والحقيقة السَّافرة التي لا ينبغي إغفالها مهما راج الإلف وذاع التَّكرار، هي أنَّ ابن خلدون ضَرَبَ بِعُمْقٍ في علم الأدب والنَّقد قبلَ أنْ يُؤَسِّسَ لأي فنٍّ آخر، كيف لا وأوُّل ما تلقى علوم العربيَّة على الحُذَّاق من أهل زمانه، ولا تخفى أيضا معالجته للشِّعر والتّرسل بالحفظ والقول والاستنباط والنَّقد، ومع ذلك فقد بلغت شهرته في علم الاجتماع ما لم تبلغه في فنٍّ آخر، ونحن في هذا البحث فتَّشنا عن الشَّخصيَّة الأدبيَّة والنَّقدية الَّتي امتاز بها ابن خلدون، ونظرنا في إعراب بواطنها لتخرج بذلك إلى عالم النَّقد الأدبيِّ، ولم نكن بِدَعًا في هذه الدِّراسة معاذ الله، بل سبقنا إليها كثيرون، غير أنَّ لكلَّ باحث وجهة رأي يتفرَّدُ بها، ولكُلٍّ منهج خاصٌّ في تحليل المعطيات، ولكُلٍّ قدرته البيانِيَّةُ على إقناع المتلقي في قضايا لا نعرف عنها غير سطور دَبَّجَها مُؤَلِّفها من دون استفاضة في مصادرها، مع ما عَبَثَتْ به عوادي الزَّمن من اندثار صِيتِ رَجُلٌ أو انقطاع أثر، هذا ولسنا نبالغ إن اتَّخدنا ابن خلدون نقطة تاريخيَّة نقسم بها الرؤية في قضايا الشِّعر إلى شطرين:

**قضايا الشِّعر قبل ابن خلدون:**

لا جرَم كان الأوائلُ أعلم النَّاس بالشِّعر وأقدرهم عليه، كيف لا وهم ينقلونه إلينا ويَتَقَصَّوْنَ أخباره ويتحرَّون جيِّده من سقيمه، ويبذلون في طُرُقِ الرِّواية الغالي والنَّفيس، وليس الأصمعيِّ (216ه)، أو حمَّاد الرَّاوية (155ه)، أو المُفضَّل (168ه) بالَّذي يخفى ذكرهم واشتهارهم وحذقهم في الرواية والمعرفة، وقد استطاع علماء الشِّعر ورواته الأقدمون أن ينشئوا مدارس تمشي على منهج مخصوص في معالجة الشِّعر وقضاياه، وقد كانوا هم اللَّبنة الأولى في تشييد مدرسة النَّقد القديمة، وتتابعت الطبقات طبقة بعد طبقة في تأسيس وإثراء هذه المدرسة حتَّى بلغت مرحلة التنظير المنهجيِّ الظاهر المعالم، وبلغت المدرسة بعد سلسلة طبقات مرحلة عالية في النُّضج والتأسيس، واشتهرت الكتب النَّقديَّة وطارت في الآفاق، ومن النُّقاد من جمع القضايا في سفر مفرد، ومنهم من عَرَّضَ أو صرَّح في سفر جامع، وظلَّ الأمر على هذا النَّهج حتَّى تقهقرت أركان دولة الإسلام، ونُكِب الشَّرق والغرب بمحن عصيبة، ممَّا يدخل في سنن الله الكونية في المُلك، ولم تترك المِحنُ هذه غير شذرات يرجع إليها النَّاقد بين الفينة والفينة، ممَّن يتلقى آرائهم ويقف على أقوال لهم هنا وهناك بين ثنايا البطون وشوارد الأبواب والفصول.

ولمَّا آل الأمر إلى قيام دعائم الدولة والملك من جديد، عادت المدرسة للإحياء مرَّةً أخرى، غير أنَّ هذه المَرَّة لم تحظ بالأهميَّة الَّتي كانت عليها باديَ الأمر، وكُتب عليها أن تتأسَّس على بعض الجهابذة والأعلام، فمنهم أديبٌ أريبٌ من كِبارِ النُّقاد، استطاع بمعرفته الكبيرة أن يؤسس تأسيسًا يَتَّسِمُ بحِلْيَة الجِدَّة الملبوسة فوق لَبُوسِ الأَصَالة، وهذا الأديب هو عبد الكريم النَّهشليِّ ، غير أنَّ الأيَّام تذهب أحيانا بالأعلام الخافقة، وتُنَكِسُّ مَجْدَ الرَّايات الشَّامخة، إذْ لم نعرفْ من أخبار هذا الرَّجل شيئا ذا بال، لولا ما علمناه من فضله الواسع في إثراء مدرسة تلميذه ابن رشيق النَّقديَّة، فقد حظي هذا الأستاذ بتلميذ نجيب جدًّا، حذا حذوه واستقبل قبلته وسار على منهجه في طريقة التجديد والتأسيس، وكان صاحب دراية عالية بالشِّعر وقضاياه، وقد ساعدته ظروف الأيَّام في بلاط الملك أن يؤلف كتابه «العمدة في محاسن الشِّعْرِ وآدابه»، وهو العمدة بلا مِرْية في قضايا النَّقد والشِّعر، فكان بذلك ميلادا جديدا للقضايا الشعريَّة القديمة، في أتمِّ وأبهى صورة، ولم يزل النُّقاد وأهل الخبرة بالشِّعر يستظلون بظلِّه، ويَغْتَرِفُونَ من فُضَالَتِهِ، حتَّى أتى ابن خلدون سَارِيًا مِنْ مَسْرَاهُ فعَلِمَ كيف يجني الثَّمرة من العمدة، وعلم أيضا كيف يستعمل أدواته في تحليل مسائل النَّقد وقضايا الشِّعر منه.

**قضايا الشِّعر عند ابن خلدون:**

من الغريب والملفت في نفس الوقت، أنَّ ابن خلدون لم يكن له في قضايا الشِّعر غير وُريقات بين ثنايا المُقَدِّمة، إلا أنَّها حوت من مقاصد الشِّعر ما أربت به على الغاية، وشبيه بهذا ألفيَّة ابن مالك، فهي في أصلها أبيات من الرَّجز التَّعليميّ، غير أنَّ كُلَّ كَلِمة فيها أجرت الأنهار من المداد، سواء في شرحها أو تحليلها أو الاعتراض عليها كما لا يخفى عند النَّحويين وأرباب الحواشي، فكأنَّ ابن خلدون جعل للنُّقاد بعده زُبدة ملخصة، لهم فيها بعد ذلك شؤون وشؤون من الدَّرس والشَّرح والاستقصاء، والعجيب أيضا أنَّ القضايا عنده لم تكن قديمة المعالجة، بل ألبسها من الجِدَّة ما جعلها تتبوأ التَّفرُّد بالقول في كثير من الأحيان، فمفهوم الشِّعر عنده مباين أشَدَّ المُبَايَنةِ لمفهوم الشِّعر عند الأوائل، وعمل الشِّعر عنده مبنيٌّ على قول المُتَّقدمين غير أنَّ فيه مسحةً من تجربته، وضرامًا من الجهد الَّذي أفناه في معالجته، وهو الشَّاعر المتَرَسِّل، والكثير الكثير من القضايا والمسائل التَّي سوف تقف بنا في ثنايا هذه المذكرة.

1. سورة الغاشية ، الآية 17. [↑](#footnote-ref-2)
2. ينظر كتاب الضَّوء اللامع للسَّخاويّ ففيه كثير من أخبار وسير هؤلاء الأعلام المجددين. [↑](#footnote-ref-3)